

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المحاضرة السابعة

علاقة علم المعاني بنظرية النظم القرآني

الأستاذ الدكتور رحيم الشريفي

في هاته الفقرة سنقف على أهمّ تجليات هذا العلم (علم المعاني) وهي (نظرية النظم)، وقلنا من قبل : إنّ علم المعاني في أيسر- تعريفاته هو : ((علمٌ يهدف إلى الوقوف على الأسرار التي يرتفع بها شأن الكلام ويفضّل بعضه بعضًا ومعرفة إعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله ثمّ من حسن الرّصف ولطف الإيجاز وجودة السّبك وبراعة التّركيب وجزالة الكلمات وعذوبة الألفاظ ومحاسن الكلام والوقوف على بدیع القول وأسرار البلاغة وأسباب الفصاحة وغير ذلك)) (١).

النّظم في اللّغة

النّظم مصدرٌ على وزن (الفَعْل) وباب فعله (فَعَلَ يَفْعَل) ضَرَبَ يَضْرِبُ بمعنى الربط والتّأليف و التّنظيم والاتّساق ، يقال : نظم اللؤلؤ ينظمه نظماً ألفه وجمه في سلك واحد ونسق مرتّب ، قال ابن فارس : ((النون والظاء والراء أصلٌ يدلّ على تأليف شيءٍ وتكثيفه . نظمتُ الخرزَ نظماً ، ونظمتُ الشّعَرَ وغيره)) (٢).

وقال ابن منظور : ((النّظم التّأليف نظمه ينظمه نظماً ونظاماً ونظمه فانظم وتنظّم.... والتّظيم مثله... والنّظام : ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره.... ونظام كلُّ شيءٍ ملاكه والجمع أنظمة وأنظيم ونُظْم ... والأنظام الاتّساق... وتناظمت الصُّخور تلاصقت)) (٣).

النّظم في الاصطلاح

قبل أن نبرق بتعريف عبد القاهر الجرجاني للنّظم بوصفه مصطلحاً قاراً في الدّرس البلاغيّ لابد أن نذكر ما جاء في كتب المصطلحات عنه وقد اصطفينا تعريفين ، الأول لأبي البقاء الكفويّ (ت ١٠٩٤هـ) إذ أشار إلى التّأليف بأنّه ((جمع الأشياء المتناسبة من الألفة ... والتّنظيم من نّظم الجواهر وفيه جودة التّركيب ، والتّأليف بالنسبة إلى الحروف لتصير كلماتٍ والتّنظيم بالنسبة إلى الكلمات لتصير جملاً ، والتّركيب : ضمّ الأشياء مؤتلفة كانت أو لا لمرتبة الوضع أو لا ، فالمركب أعمُّ من المؤلّف والمرتبّ مطلقاً ، والترتيب : أعمُّ مطلقاً من التّنضيد ؛ لأنّ التّرتيب عبارة عن وقوع بعض الأجسام فوق بعضٍ ، والتّنضيد : عبارة عن وقوع بعضها فوق بعضٍ على سبيل التماس اللّازم ؛ لعدم الخلاء ، ومراتب تأليف الكلام خمسٌ :

الأولى : ضمّ الحروف المبسوطة بعضها إلى بعضٍ ؛ لتحصيل الكلمات الثلاث : الاسم والفعل والحرف . والثانية : تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعضٍ ؛ لتحصيل الجمل المفيدة ، ويقال له

: المنثور من الكلام . والثالثة : ضمّ بعض ذلك إلى بعضٍ ضمًّا له مبادٍ ومقاطع ومداخل ومخارج ، ويقال له : المنظوم (((٤) .

والم ذكر الرابعة والخامسة لكونهما بعيدتين عن المراد .

وذكر التهانوي (ت ١١٥٨هـ) أربعة تعاريف للنظم ما يتعلّق بالمراد ثلاثة منها ، قال : ((النظم ... في الاصطلاح يطلق على معانٍ : أحدها : بحسب اللفظ مفردًا كان أو مركّبًا كما في تقسيم نظم القرآن إلى الظاهر والنص وغيرهما . والثاني : تركيب الألفاظ على وفق ترتيب يقتضيه إجراء أصل المعنى ... والثالث : ترتيب الألفاظ متناسبة المعاني ، متناسقة الدلالات على وفق ما يقتضيه العقل أو الألفاظ المترتبة بهذا الاعتبار ، فالنظم بهذا شامِلٌ لرعاية ما يقتضيه علم المعاني والبيان بخلاف النظم بالمعنى الثاني ، فهو اعمُّ منه ومنه (نظم القرآن)) (٥) .

نخلص ممّا تقدّم أنّ النظم هو ترتيب الكلام وتعليقه وتنسيقه وتنظيمه وتأليفه وتنزيده على وفق نظام يراعى فيه تطبيق الكلام على وفق مطابقة الكلام لمقتضى الكلام ، فالنظم تطبيقٌ وظيفيٌ لعلم المعاني ويتجلّى النظم في جودة الكلام وسبكه وتأليفه على وفق حدود وأنظمة تراعي قواعد العربية وسمتِ كلام العرب .

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

عُرف هذا التعليق والترتيب والتأليف والترتيب فيما بعد ب(نظرية النظم) ، وتأثير (نظرية النظم) في البلاغة العربية وفي مسار التأليف فيها وفي النقد وفي تفسير القرآن معروفٌ مشتهر ، كما أنّ الاهتمام بها والعناية بدراساتها قديمًا وحديثًا معلومٌ منتشر .

ويبدو أنّ سيبويه أوّل مَنْ وقف على نظم الكلام وتحديث عن العلاقة بين المسند والمسند إليه كونهما لا يستغني أحدهما عن الآخر فهما متلازمان ، قال : ((هذا باب المسند والمسند إليه وهو ما لا يستغني واحد منهما عن الآخر ، ولا يجد المتكلم منه بد)) (٦) . وعلّق السيرافي (ت ٣٦٨هـ) على نصّ سيبويه فقال : ((هذا باب المسند إلى الشيء ، والمسند ذلك الشيء إليه والفعل والفاعل وكلّ واحدٍ منهما محتاجٌ إلى صاحبه ، إذ لا يتمُّ إلا به ... أن يكون المسند هو الثاني في الترتيب على كلّ حال والمسند إليه هو الأوّل فإذا كان فعلًا وفاعلًا ن فالمسند هو الفاعل والمسند إليه هو الفعل وإن كان مبتدأ وخبرًا فالمسند هو الخبر والمسند إليه هو المبتدأ ، ويكون بمنزلة المبني والمبني عليه)) (٧) .

وقد أشار الجاحظ في صدر كتابه في (خلق القرآن) إلى الاحتجاج بنظم القرآن (٨) ، وذكر النظم صراحة في كتابه (الحيوان) بعبارة ((كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه)) (٩) .

ونلمح ذكرًا لنظم القرآن عند الخطّابي في رسالته (البيان في إعجاز القرآن) عند حديثه عن كون بلاغة القرآن معجزةً لأنّه جاء ((بأفصح الألفاظ في أحسن نُظوم التأليف مضمّنًا أصحّ المعاني)) (١٠) .

عرّف عبد القاهر الجرجاني النَّظْم بأنه ((تعليق الكَلِم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسببٍ من بعضٍ والكلم ثلاثٌ : اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ وللتعليق فيما بينها طُرُقٌ معلومةٌ ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرفٍ بهما))(١١).

وقد سمّى الجرجانيّ موضوعات التّقديم والتّأخير والدُّكر والحذف والقصر- والفضل والوصل والتّعريف والتّنكير : معاني النَّحو أو النَّظْم ، قال : ((واعلم أنّ ليس النَّظْم إلاّ أنّ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النَّحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرّسوم التي رُسّمت لك فلا تخلّ بشيءٍ منها ، وذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه النَّاطم بنظهِ غير أن ينظر في وجوه كلّ باب وفروقه ، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق و زيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق))(١٢).

ويرى الجرجانيّ أنّه ينبغي أن ينظرَ إلى الكلمة قبل دخولها في التّأليف ، وقبل أن تصيرَ إلى الصّورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمرّاً ونهيّاً واستخباراً وتعجباً ، وتودّي في الجملة معنّى من المعاني التي لاسبيل إلى إفادتها إلاّ بضمّ كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة ...وهل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحة إلاّ وهو يعتبر مكانها من النَّظْم ، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة نائية ومستكرهة ، إلاّ وغرضهم أن يعبروا بالتّمكّن عن حسن الاتّفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنّبوّ عن سوء التّلاؤم ، وأنّ الأولى لم تلتق بالثانية في معناها ، وأنّ السّابقة لم تصلح أن تكون لِفَقاً للتّالية في مؤادها ؟))(١٣) .

ونلمح التّأكيد على حسن التّلاؤم والترتيب والتّأليف والاتّساق بين الكلمات عند عبد القاهر الجرجانيّ إذ إنّ معاني الألفاظ تتفاضل لما بينها من الاتّساق العجيب والنّسق الباهر والتّأليف المعجّب قال : ((أم كلّ ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتّساق العجيب ، فقد أنّح إذن أنّصاحاً لا يدع للشكّ مجالاً أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كَلِم مفردة ، وأنّ الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ... وممّا يشهد لذلك أنّك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثمّ تراها بعينها تتقلّ عليك وتوحشك في موضعٍ آخر))(١٤).

وعودٌ على ماسبق ، فإنّ الناظر في تاريخ البلاغة العربيّة ومتابعة مراحل تطورها تفكيراً وتصنيفاً لها ولفنونها يجد أنّ هاته النظريّة قد تُنوّلت تناوُلاً كبيراً وعريضاً ، فقد تأثر علماء البلاغة بمنهج عبد القاهر الجرجانيّ في البلاغة عامّة ، وبنظريّة النَّظْم خصوصاً ((وقد تنوّعت أشكال هذا التّأثر وتعدّدت صورته بين العلماء ، فمنهم من قصد إلى استخراج لطائف الكتاب العزيز الحاصلة ؛ بسبب النَّظْم وبناء تفسيره على علمي المعاني والبيان ، ومنهم من عمّد إلى ما رأى أنّه خلاصة نظرية النَّظْم فجعله قسماً من أقسام علم البلاغة ، ومنهم من أراد جمع المقاصد في هذا الفنّ وضبط القواعد فاختصر- كتابي الشّيخ أو اختصر- على اختصار

(الدلائل) منهما ، ومنهم مَن اُكتفى بنقل النُّصوص من الدلائل إذ كانت معجبة لديه وموافقة لما عنده ((١٥)).

قراءة تحليلية في تبيان النظم القرآني عند عبد القاهر الجرجاني

يتجلى التحليل البلاغي الباصر والرؤية الكشفية الدقيقة عند عبد القاهر الجرجاني وهو يمارس الوظيفة البيانية في كشف أسرار الخطاب القرآني بلاغياً ، وتبيان حقائقه الدالة على سرِّ إعجازيته في ضوء نظمته العجيب واتساقه الفريد ، وتركيبه العظيم ، واتساقه المعجز ، ومن أجل تبصرة القارئ بهذا التحليل العميق والدقيق الذي مارسه الجرجاني انتقينا نصاً قرآنياً مباركاً وهو من انتخاب الجرجاني قال : ((وهل تشكُّ إذا فُكِّرت في قوله تعالى : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (سورة هود / ٤٤) ، فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع ، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة ؛ إلا لأمرٍ يرجعُ إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحُسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن تستقرِّبها إلى آخرها ، وأنَّ الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من مجموعها ؟ ، إن شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت ، لأدت من الفصاحة ما تؤدِّيه وهي في مكانها من الآية ؟ قل : (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظرَ إلى ما قبلها وما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشكِّ في ذلك ، ومعلوم أنَّ مبدأ العظمة في أن تُؤدِّيت الأرض ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء ب(يا) دون (أي) ، نحو : يا أيُّها الأرض ، ثم إضافة الماء إلى الكاف ، دون أن يقال : ابلعي الماء ، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : وغيض الماء ، فجاء الفعل على صيغة (فعل) الدالة على أنه لم يخض إلا بأمرٍ وقُدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : (وقضي- الأمر) ، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو : (استوت على الجودي) ، ثم اضمار (السفينة) قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة ب (قيل) في الفاتحة ؟ أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعةً ، وتحضرك عند تصوُّرها هيبةً تحيط بالنفس من أقطارها تعلُّقا باللفظ من حيث هو صوتٌ مسموعٌ وحروفٌ تتوالى في النطق ، أم كلُّ ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب ((١٦)).

ويمكن تلخيص ما قرره الجرجاني في تحليل الآية تحليلًا بلاغيًا في ظلِّ نظرية النظم ، إذ أبان الجرجاني عن سرِّ عظمة النصِّ القرآني ، وكيف أنَّ معاني النحو والعلاقات النحويَّة والبنى التركيبيَّة قد أعانت وساعدت في تجلية تبيان إعجازية النصِّ المبارك ، فكل كلمة وقعت في مكانها وحيزها فلو قامت أخرى محلها لفسد المعنى وسقطت البلاغة ، وفي هذا إشارة إلى المنهج الاستبدالي الذي مارسه علماء الإعجاز ولاسيما عبد القاهر الجرجاني في مدونته (دلائل الإعجاز في علم المعاني) ، وتتجلى عظمتُهُ في المحاور الآتية :

- الأوَّل : نداء الأرض وأمرها ونداء السماء وأمرها .
- الثاني : اختصاص النداء بحرف النداء (يا) دون (أي) .

- الثالث : إضافة الماء إلى الكاف : ((ابلعي ماءك)) ، دون أن يقول : ابلعي الماء .
- الرابع : استعمال بنية المبني للمسكوت عنه في الأفعال : قِيلَ ، غِيضَ ، قُضِيَ- ، قِيلَ ، وهو استعمال مقصود ومراد غايته تبيان عظمة المسكوت عنه وشهرته وخالقِيته المعجزة ، فضلاً عن التوكيد والتعجب وسرعة الإنجاز (الاقتصاد اللغوي) المتحصّل من هاته البنية المتكررة : قيل يا أرض ، غِيضَ الماءُ ، قُضِيَ الأمرُ ، قِيلَ بُعْدًا .
- الخامس : التوكيد والتفريغ في جملة : وقُضِيَ الأمرُ .
- السادس : السكوت عن السفينة وإضمارها دون ذكرها في قوله تعالى : ((واستوت على الجودي)) ، مع ما في الإضمار من عظمة وفخامة ، وبيان لنهاية الرحلة .
- السابع : عود الخواتيم على الاستهلالات ، ولاسيّما مقابلة قيل في الفاتحة ب(قيل) في الخاتمة .

وقد أبان الدكتور محمد أبو موسى عن جماليّة الخطاب القرآنيّ في النصّ المعين ، إذ تتحدّث الآية المباركة عن موقف عصيب حين انهمرت السماء بأطارها وتفجّرت عيون الأرض بمياهها والتقى ماء السماء بماء الأرض على أمرٍ قد قدره الرّحمنُ وقضاه ترى الماء يُضِيعُ كلَّ شيءٍ يُغَيِّبُ الدُّورَ ويبتلع الشَّجرَ يجرف السدود ويتخطّى الحواجز ويتعدّى الحدود ، حتّى لم يبقَ ظاهرٌ لم يغطّه ، فاكتسح قوى الشَّرِّ- والعصيان والتّمرد والبغي من العصاة المنحرفين الصّالين ؛ لتنجو الجماعة المؤمنة ، ولتستقرّ سفينة نوح ومن آمن معه على شاطئ النّجاة وبر الأمان والسّلامة بعد هلاك الظّالمين بالغرق والهلاك والقضاء الحتمي ، إذ نلمح السرعة والخلّاص الفوريّ ، ومن أجل هذا نادى الأرض والسماء ثمّ أمرهما مع النّداء بحرف النداء (يا) بلا (أي) : يا أيّتها الأرض ، ويا أيّتها السماء ، لأنّ في هاتين الصّغتين احتشاداً واحتفاءً غير موجود في : يا أرض ، ويا سماء مع التّنكير في كلمتي أرض و سماء فضلاً عن الأفعال المبنيّة للمسكوتات عنه للتعجب والسرعة والتوكيد وضغط العبارة ، فالإعجاز في نفوذ الأمر في المأمور .(١٧)

ونبضّر- التّحليل البياني المعجب لهذا الخطاب القرآنيّ عن مفسّر- بيانيّ وهو الرّمخشريّ ، الذي رزق قدرات عبد القاهر الجرجانيّ في صدق النّظرة التحليليّة وبراعة الحسّ ، وهو كما أبرقنا من قبل : أنّ الجرجانيّ هو أوّل من أطلق على النّظم (علم المعاني) ، وهذا ما وقفنا عليه في مقدّمة تفسيره (الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل) ، فقد أفاد الرّمخشريّ كثيراً من بيانات الجرجانيّ إلا أنّ عبد القاهر ((قد رزق موهبة في التّعبير واسترسالاً في التّوجيه ، واطّراداً في النّسق ، وصفاءً في الدّوق ، وحركة في الدّهن فهو حين يتعرّض للآية الكريمة يبسطها بسطاً متماسكاً واضحاً في نفس أدبيّ طويل إلى أبعد حدّ وأفضاه كما رأينا في سورة هود))(١٨).

وسنوجز عبارة الرّمخشريّ في تفسير هاته الآية ، إذ إنّ نداء الأرض والسماء جاء هما ينادي العاقل المميّز على لفظ التّخصيص والتّعيين ، والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ، ثمّ أمرهما بما يؤمر العاقل المميّز ، فهي منقادة لأوامره وتكوينه ؛ عارفةً بعظمتها

وقدرته وملكوته ، واستعمل الفعل (ابلعي) بمعنى التَّشْفِ ، والفعل (أقلعي) بمعنى الإمساك والقطع والتَّوقُّف الحتمي ، ومجىء الأفعال مبنية للمعلوم ؛ للدلالة على الجلال والكبرياء والعظمة ، وقوله : ((وقيل بُعْدًا)) ، إذا أراد البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ويقفل الزمخشري بياناته التفسيرية البلاغية لهذا النَّص بالإشارة إلى احتشاد الفنون البلاغية فيه وأن علماء البيان قد استفصحو هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم ففيها من المحاسن التي هي اللب وما عداها القشور . (١٩).

وقد تعجّب واستغرب عبد العظيم ابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ) من وجود فضاءات بيانية وبديعية في هذه الآية المباركة قال : ((وما رأيتُ في جميع ما استقرتُ من الكلام المنثور والشعر الموزون كآية كريمة من كتاب الله ، استخرجتُ منها أحدًا وعشرين ضربًا من المحاسن)) (٢٠). وقال أيضًا ((فهذه آيةٌ عدّة ألفاظها سبع عشرة لفظةً تتضمنُ أحدًا وعشرين ضربًا من البديع غير ما يتعدّد من ضروبها)) (٢١).

ويرى الدكتور محمد بازي أنّ ((التفاعل العجيب بين مكونات النَّص القرآني وكيف أنّ جزءًا هامًا من تحقيق كلفة المعنى تُركت للمفسر - أو القارئ العادي ؛ ليحرّك طاقته التأويلية والتركيبة عبر تجميع الأخبار المتفرقة في بقية السور عن قصة نوح وقصص الأنبياء الآخرين)) (٢٢).

وقد التفت الدكتور سعود حامد الصاعدي في كتابه القيم (البلاغة الكونية من الإعجاز إلى الإنجاز) إلى اشتغال الآية المباركة على فضاء كوني خارجي لحظة نهاية الطوفان وبدء حياة جديدة بعد الغرق ، وهو نظرٌ جديد في الرؤية البلاغية الكونية ، وتنتضح هاته الرؤية في وجود الطباق بين السماء والأرض وهما الفضاء الكوني الذي يظهر فيه مشهد الطوفان ثمّ جلاؤه لاحقًا بين عالم علويّ وعالم سفليّ فتلتقي السماء بالأرض ، ويتجلّى التقابل الأرضي : وقيل يا أرض ابلعي ، مع التقابل السماوي : ويا سماء اقلعي ، والتوافق الصوتي بين الفعلين : ابلعي وأقلعي ، إذ يظهر التجنيس غير التام ، وما تقتضيه طبيعة الأصوات في الفعلين من قوّة الحدث وكثافة صوت الطوفان .

إنّ نداء الأرض والسماء وأمرهما أمانة باصرة على كونيّة هذين المخلوقين العظيمين ، وإنزالهما منزلة الإنسان الكونيّ الإثمانيّ (٢٣).

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين